تقلص ظل المدنية الاوربية

ظهر اخيراً في عالم الادب والفلسفة كتاب ترجع خطورتهُ الى غرابة موضوعهِ وطرافة بحثهِ ولما اثارهُ الباحثون من الضجة حولهُ في العالم الاوربي. ذلك ان مؤلفاً المانيًّا معروفاً في عالم الادب والفلسفة يدعى (اوزوالد سپنغلر) أخرج كتاباً سمّاهُ « تقلص ظل المدنية الاوربية » بسط فيهِ رأيهُ في أن هذه المدنية الاوربية قد بلغت ذروة مجدها وانها آخذة في الانحدار منها وانهُ عما قريب ستندثر آثارها وتندرس معالمها !

قد يكون غريباً ان يقوم عالم وباحث من كبار الباحثين مثل سپنغلر يبحث بحثاً غريباً في بابهِ ومثيراً لمناقشات حادة حولهُ مما يدعو الكتاب لوضع مؤلفات متعددة تدور حول هذا البحث المثار بين ناقد مسفه لرأيهِ وبين مجدّد عاضدٍ لهُ لكن على كل حال للرجل رأيهُ وحجتهُ وللرأي وجاهتهُ وأنا لنقل رأي الرجل أمناء في نقلهِ كما ساقهُ الينا :

يقول سپنغلر ان لكل مدنية حياتها واجلها كما هي الحال في الجسم الحيّ : تظهر ثمّ تمرُّ في ادوار الطفولة والشباب حتى تبلغ اوج مجدها وقوتها ثم تزل وتضعف ثم تموت

وهذا قانون طبيعي تخضع لهُ المدنيات جميعاً . وهكذا كان شأن المدنيات العالية التي روى لنا التاريخ ادوارها التي مرّت بها ووضحت لنا معالمها على ضوء تمهيداتها ومقدماتها وكوامنها وآثارها . وقد بحث سپنغلر في تاريخ المدنيات العظيمة التي ظهرت على سطح الارض وقدّر لكل مدنية ان تعمر حياة لا تزيد على الف وخمسمائة عام تمرّ فيها بادوارها المختلفة من نشوء الى نماء فازدهار فذبول واندثار

ولقد نشأت المدنية الاوربية الحديثة منذ عام ٩٠٠ وعليهِ فانها ستعمّر حتى عام ٢٤٠٠ ميلادية اي ٤٧٥ عاماً اخرى . حقاً لقد ازهر غصن المدنية الاوربية فبهر الابصار وتدانت ثمارهُ فاقتطفها المستثمرون اما اليوم فهو في دور الانحلال والزوال ! هكذا يقول سپنغلر وتلك نظريتهُ التي يؤيدها بالبرهان التاريخي ويسوق للدلالة على صحتها الحجج الدامغة !

قد يكون رجماً بالغيب من مثل المؤلف أن يتكهن بالتاريخ المستقبل وان يقول بسقوط مدنية يعتقد البعض انها في ابان عظمتها وسيطرتها على العالم وانها لا زالت في عنفوان قوتها وسيادتها وانها قائمة على اركان يذهب البعض الى انها اركان قوية لن تتداعى. وان العقل لا يستطيع ان يسلم بتصديق مثل هذه الآراء المتطرفة التي تبدى في جرأة مدهشة مع انها

قد في نظر البعض بعيدة التحقيق جداً بل من قبيل التنبوء بالمستقبل البعيد. ولو انهُ جاز لرجل من المشتغلين بالفلك التنبؤ بحدوث ظاهرة جوية لقلنا انهُ درس علمهُ وتوغل في ميدانه حتى أصبح من مجرد الوقوف على علامات خاصة يمكنهُ ان يخبرك عما يخبئهُ المستقبل القريب للجو من تقلبات مستنداً الى ما لديه من مقدمات هي ستؤدي حتماً الى هذه النتائج

الا أن سبنغلر يقول لك في الرد على هذا اني قد درست التاريخ درساً دقيقاً وتعمقت في مباحثي التاريخية ورأيي أن لا شيء يحول بيني وبين التنبؤ بالمستقبل وحوادثهِ التي سيؤدي اليها حتماً التاريخ الماضي والحاضر وحوادثهما فاني أرى الحاضر بناظري وأزن حوادثهُ بعقلي واستخلص من ذلك كلهِ مقدمات اجعلها اساساً لتنبؤاتي عن المستقبل وأن نظري في هذا لا يخطىء وانما هو صائب كنظر الفلكي فيما يتعلق بالفلك وان التاريخ يعيد نفسهُ كل يوم كما رأينا وسمعنا وكما سنرى وسنسمع !

ويسمي سبنغلر بحثه هذا بالعلاقة الوصفية وهو درس الماضي بقصد ترتيب التتابع المستقبلة على ضوء ما يعرف عن الاول. فانك اذا درست مدنية من المدنيات وجب عليك ان تدرسها من مختلف نواحيها السياسية والعلمية والادبية والفلسفية والفنية ومن حيث رقيها المادي والصناعي والتجاري والخلقي. ومن هذا الدرس وبعد التمحيص والمقارنة بالمدنيات الأخرى يمكنك ان تستخلص فكرة عما سيؤول اليهِ أمر هذه المدنية من عمر طويل أو فشل وزوال. وقد كان الزوال نصيب المدنيات اليونانية والرومانية والاسلامية فلم لا يكون نصيب المدنية الاوربية كذلك

قد يكون سبنغلر صادقاً في نظريته كما قد يكون خاطئاً فيها الا أنها نظرية على كل حال لها قيمتها التي تستحق من أجلها البحث وفعلاً قد تناولها في اوروبا كثير من العلماء وكتبوا عنها كثيراً من الكتب والمقالات

ولد الفيلسوف سبنغلر في بلانكنبرغ من اعمال هانوفر في مايو سنة ١٨٨٠ وتلقى العلوم الرياضية والطبيعية في جامعات هانوفر ولكنه كان في الوقت نفسه مولعاً بدرس التاريخ والفن. فكان الجمع بين هذه المباحث المختلفة منشأ لما نرى في كتاباته من الاستشهاد بالعلوم الطبيعية آناً والمباحث التاريخية والفنية آناً آخر. ولما نال لقب دكتور في الفلسفة كان موضوع رسالته سنة ١٩٠٤ « فكرة ما وراء الطبيعة في فلسفة هيراقليطس » ثم قضى اربع سنوات (١٩٠٧ — ١٩١١) يدرس الطبيعة الطبيعية في مدرسة بهمبرج وضع في اثنائها اركان فكرته الفذة التي يدعو اليها واستقال سنة ١٩١١ من التدريس واكب على وضع كتابه المشهور الذي ترجم الى الانكليزية ونشر بها سنة ١٩٢٦ بعنوان « انحطاط الغرب » وهو الكتاب الذي يشار اليه في هذا المقال

بين ساخر يدعي ان القصد من الكتاب سياسي ليحمل الحلفاء على الرفق بالمانيا لئلا يكون اندثارها مقدمة لاندثار الحضارة نفسها. وجاد مؤيد لها يستند الى الأدلة التاريخية كما يستند الى الواقع في المدنية الاوربية اليوم. فاوربا تتناحر وهذا التناحر لا شك من اسس اندحار المدنية. والافكار في مختلف بلدان اوربا متجهة اتجاهاً ماديًّا صرفاً حتى ان المادية قد استولت على عقول القوم واحساسهم ومشاعرهم فهم لا يعنون الا بالمادة ولا يفكرون الا بها ولا يسعون الا في سبيل الحصول عليها حتى لقد صار التزاحم عليها عظيماً ومن أجلها ترى التنافس في سبيل الاستعمار الذي قد ضاق نطاقهُ اليوم فمن الوجهة الاقتصادية تعتبر الحالة المتسلطة اليوم اسوأ ما وصلت اليه اوربا

أما مايدعيه الساسة من مكنة القضاء على نزعة الحروب فهذا ما لا يمكن التسليم به لمن يزن الأمور بميزانها الصحيح. فالدول جميعاً تعمل على تقوية جيوشها وتزويدها بأحدث وسائل الدفاع. وعقول المخترعين والمفكرين تعمل ليل نهار على اختراع الوسائل الفتاكة كالمفرقعات وغازات السموم وما هي ذي الاختراعات تحتفظ بها وزارات الحربية في مختلف الدول. حتى المانيا تلك التي يقولون عنها أنها قد سرحت جيوشها وحرمت عليها التعبئة لديها اقوى الجيوش فهي تعمل اليوم على تكوين جيوش هي مثال الشجاعة والقوة تملأ نفوس رجالها الذين هم شباب اليوم وعدة المستقبل روح الحمية والحماسة وحب الانتقام. فهؤلاء الفتيان الالمان لا يكفون عن التمرن على الالعاب الرياضية حتى الفتيات منهم بشكل اقرب الى الحركات العسكرية منهُ الى الالعاب الرياضية المادية. وبعد هذا التطاحن والتنافس في سبيل المحافظة على الجيش الاقوى والوصول الى اشد الاختراعات فتكا واعظمها هولا يقول ساسة اوربا نحن نسعى لنزع السلاح ولما فيه ضمان السلام العالمي!!

اما الحالة الخلقية العصرية فسواء كانت في اوربا او غير اوربا فانها وان لم تكن قد بلغت الحد الاقصى من التدهور والانحطاط فانها بالغة اياهُ عما قريب. وحينئذٍ تحقُّ على اوربا كلمة سبنغلر ويتحقق نظرهُ فان الانحلال الخلقي سيكون ولا شك عاملاً قويًّا في اندثار المدنية الاوربية وتقويض اركانها ان قريباً او بعيداً

قد يذهب مدى الفكر البعيد بالانسان الى ان يفكر في تلك المدنية التي ستقوم على انقاض المدنية الاوربية حينذاك. هذا الذي يكون رجماً بالغيب حقًّا. لكنها قد تكون مدنية امريكية تقوم في ذلك العالم الجديد — والعوامل التي تساعد على ترجيح ذلك كثيرة — اهمها أن ذلك العالم يعمل في هدوء وسكينة لما فيه خير المدنية والانسانية!

عبد الفتاح حبيشه الحامي